

د. معمر الدين عبد القادر
المركز الجامعي بعين تموشنت

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2018-07-08	2018-09-05	2019-03-22

تمهيد:

يمثل الخطاب النضالي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين قاعدة راسخة لا تنحرم في فلسفتها الإصلاحية الشاملة، والقائمة على ترسيخ عناصر الهوية الوطنية للأمة، وبث الوعي القومي بين طبقات المجتمع الجزائري الذي تعرض في الثلث الأول من القرن التاسع عشر، إلى أعف هجمة استعمارية باغية شهدتها البشرية في تاريخها الطويل. ولم تتوقف هذه الحملة الجائرة عند حد اغتصاب الأرض واستنزاف خيراتها فحسب، بل تعدت ذلك إلى استهداف الإنسان والأرض والفكر والعقيدة معا. فقد حاول هذا الاحتلال البغيض أن «يعزز عملية غزوه العسكري للجزائر، بغزو ثقافي وفكري، سعى من ورائه إلى تخطيط الشخصية القومية للشعب الجزائري، حتى يجرده من أهم أخطر أسلحة المقاومة المعنوية التي جعلته يحتفظ - رغم المحن والاضطهاد - بكيانه العربي الإسلامي».1 وهكذا كان من الطبيعي أن تنتهج فرنسا - منذ أن وطئت قدمها أرض الوطن - سياسة عدائية مقبته تجاه القيم الوطنية، وأن تحاول إعادة صياغة البنية الثقافية للمجتمع الجزائري لتصير على شاكلتها وملتها، إن استطاعت إلى ذلك سبيلا.

وجاءت فرنسا بالخاطفة، واستولت على الأوقاف التي كانت تمثل المصدر المادي الأساس للتعليم العربي الحر. وداهمت المساجد وحولتها أكثرها إلى ثكنات عسكرية، لتضييق فضاءات العبادة على المسلمين، وتصدهم عن غشيان أماكن تعليم الحرف العربي، فضلا عن إهانتهم وإذلالهم بهذه التصرفات الظالمة التي لا تعير حق الإنسان

في ممارسة شعائره التعبدية بحرية، والتي تبرأ كل دولة محترمة أن ترتكبها. وقد كان الغرض من ذلك كله هو منع «تواصل الثقافة الإسلامية في المجتمع. وقد واكب هذه الحركة التهديمية أن تبعتها إقحام المنظومة الغربية بكل أبعادها الثقافية والاقتصادية والاجتماعية لتكون بديلا للمنظومة الإسلامية في مناحي الحياة.»². فانحسر ظل التعليم داخل المدن بخاصة، ولم يبق منه إلا بعض الزوايا التي كانت تباشر دورها الوطني بعيدا عن معازل الاحتلال وغيونه.

ولعل أن يكون مطلع القرن العشرين منعرجا مفصليا في حياة الشعب الجزائري، وفترة حبلى بالأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية، شهدت فيه الساحة الوطنية ميلاد الأحزاب السياسية، والجمعيات الدينية والنوادي الثقافية، وانتشار الصحف السيارة، مما أسهم كثيرا في تطور الفكر وانتشار الوعي بين طبقات المجتمع الجزائري. وقد ساعد على ذلك شعور الجزائريين بالحنينة والحزن العميقين بعدما شاهدوا بأعينهم احتفال الغزاة المستعمرين سنة 1930م بانتصاراتهم العسكرية والسياسية، بعد مضي مائة عام من الاحتلال، وأكدوا «على مرأى ومسمع من شهود البشرية جمعاء، ثبوت أنظمتهم ودوامها عبر الأجيال.»³ مما زاد من حماس الجزائريين ورغبتهم في الاعتصام بحل الله جميعا، والتشبث بالثوابت الوطنية التي تعكس وجودهم كأمة حية بين الأمم، لها ثقافتها الغنية، وتاريخها العريق، ومجدها التليد. كل ذلك حرك الهمم، ووحد القلوب، وبلور الرؤية نحو المستقبل الواعد. فكان إذن لا مناص من ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تأسست في سنة 1931م، كي تحمل على عاتقها تلك الأمانة الثقيلة، وتضطلع بواجب النهوض بالأمة، وتعتمد مشروعا إصلاحيا طموحا يقوم على:

- 1- نشر اللغة العربية بين أبناء وبنات الجزائر على نطاق واسع.
- 2- إحياء الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر بعد أن كادت تندثر في عهد الاحتلال.
- 3- بعث التاريخ العربي الإسلامي للجزائر بعد أن كان أبناء الجزائر وبناتها يقرؤون في المدارس الفرنسية بأن الجزائر بربرية مسيحية، وليست عربية مسلمة.⁴ ومواجهة سياسة فرنسا الدنيئة، والمتمثلة في التنصير، والفرنسة، والتجنيس، والاندماج في فرنسا، والتجهيل، وتشجيع الخرافات والأباطيل.

الخطاب النضالي الحذر:

لقد كان نشاط الجمعية الإصلاحية في بدايته يتسم بالحذر والحيلة في الكشف عن المقاصد والنوايا التي كان يحملها مشروعها الإصلاحي الكبير، والذي كان يحمل أهدافا واعدة، ونظرة مستقبلية ثاقبة، وهي تغيير البنية الفكرية والاجتماعية للشعب الجزائري بعدما طالتها يد المسخ والتخريب، والتحريف والتزييف، وإعداد جيل من الشباب مشبع بالقيم الوطنية، والقادر على حمل راية المقاومة في وجه المحتل البغيض، واسترجاع الحرية المغتصبة والسيادة المسلوبة.

وقد يسأل سائل: كيف يمكن أن تمارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين السياسة في ظل التكتم والتستر وإخفاء الأهداف والمقاصد؟ وهل أحجمت الجمعية فعلا عن فضح جرائم فرنسا الفظيعة، ومؤامراتها الجبانة

والمستمرة في حق أبناء الجزائر؟ وما حدود هذا السكوت وإضمار النوايا والمقاصد؟. تلك هي مجموعة من الأسئلة قد تخامر كثيرا من المتابعين لنشاط الجمعية إبان فترة الاحتلال الفرنسي لأرض الجزائر، وفي هذه الورقة البحثية شيء من التوضيح والتفسير لسلوك الجمعية المنبثق عن منهج إصلاحي شامل، تحرس فيه على تقديم المصالح والأهداف، وترتيبها وفق خطة تراعي التدرج في الطرح، والأخذ بالأولويات.

لا ريب أن الحركة الإصلاحية الجزائرية، كانت في بداية عهدها حذرة في التعامل مع الاحتلال الفرنسي الذي كان يراقب بصرامة صحفها وحركات علمائها ومعلميها من قريب، ويمنع عنها التعاطي في الشؤون السياسية. وجدير بالذكر أن قانونها الأساسي يقر بوضوح، لا سيما في الفصل الثالث منه، أنها جمعية ذات طابع اجتماعي، ولا يسوغ لها بأي حال من الأحوال أن تتدخل في المسائل السياسية.⁵ غير أن ذلك لم يمنعها يوما من الاهتمام بالقضايا الوطنية والقومية، والتي أصبحت أحيانا تنجر إليها انجرار، على ما يحمله هذا الاهتمام من مخاطر قد تعجل بتعطيل صحفها، والفتك بعلمائها ورجالها، أو الزج بهم في أتون السجون المظلمة الموحشة. وفي تاريخ الجمعية من أحداث مأساوية تغني المتتبع لشأنها، ما فعلته فرنسا الجبانة من مؤامرات وجرائم يندى لها الجبين.

وعلى ذلك، فإن جمعية العلماء أثرت التروي والحيلة، في معالجة القضايا الكبرى للأمة، والمسائل التي تمس الوطن وسلامته وسيادته، أو تهدد وجوده أو أمنه. غير أن التصريح بها ليس من الكياسة في شيء. يقول الطيب العقبي في هذا الصدد: « هذا وإن دعوتنا الإصلاحية، هي دعوة دينية محضة، لا دخل لها في السياسة البتة، نريد منها تثقيف أمتنا، وتهذيب مجتمعتنا بتعاليم دين الإسلام الصحيحة.»⁶ وهي محددات يضعها أمام الشباب الجزائري - الذي برى قلمه، وشحذ قريحته ليكتب في جرائد الجمعية، كي لا يتجاوزها، ويبتعد عن المواضيع السياسية ما استطاع حفاظا على وجود الجريدة التي تمثل لسان حال الجمعية وفكرها الإصلاحي، وسلامة كتابها من أذى يد باطشة لا ترحم، أو غدر رصاصة مميتة لا تخطيء. وربما هذا الذي دفع العلامة ابن باديس الذي كان يصدر مجلة الشهاب بكتابات كثيرة عن وصف الأوضاع الداخلية للأمة الجزائرية، بين سنتي 1925-1927، إلى مسالة الحكومة الفرنسية وعدم مواجهتها. يقول في هذا المعنى: « ولأننا مستعمرة من مستعمرات الجمهورية الفرنسية، نسعى لربط أواصر المودة بيننا وبين الأمة الفرنسية، وتحسين العلاقات بين الأمتين المرتبطتين بروابط المصلحة المشتركة، والمنافع المتبادلة من الجانبين، تلك الروابط التي ظهرت دلائلها وثمراتها في غير موطن من مواطن الحرب والسلام.»⁷ ولعل أن يكون هذا الاتجاه السياسي وليد تجارب مرت بها بعض الدول العربية والإسلامية، ونصح بها العلماء إخوانهم في الدين، بعدما تبين لهم أن المستعمر لا يدع لهم مجالا للدعوة وإصلاح أوطانهم إلا إذا انتهجوا معه سياسة المسالمة لا المغالبة، والمطالبة بالحقوق باللين والرفق، لا بالشدة والتهور، والصبر أمام الصعاب إلى حين. لا جرم أن مشروع الإصلاح كان بسيطا في ظاهره في بداية نشاط الجمعية، لا يثير الشك، وأن نشاط العلماء كان يبدو عاديا وطبيعيا لا يدعو إلى الريب، ولم تعلن الجمعية عن نيتها مسبقا فتوصد في

وجهها الأبواب، وتغلق أمامها الفرص في الدعوة والإصلاح. إن العجلة لا تذهب البلوى، ولا يتسع الأمر إلا إذا ضاق، وأي فائدة ترجى من محاولة قطف الثمار قبل نضجها؟ بل إن التريث أحيانا لأجل جلب المنافع، ودفع المضار، أولى وأجب عندهم، إذا تأكد أن لا سبيل إليه إلا به. بل ذلك خير لهم إن كانوا فاعلين. ويبين الإمام محمد عبده، المصلح المصري الكبير، هذا المعنى موضحا وناصحا لعلماء الجزائر وتونس بعد زيارته لهذين القطرين سنة 1905م. وقد طلب منهم أن يسالموا المحتل الغازي بسياسة لا تدع له المجال لمحاربة من يدعو بها وإليها. ولا يضيق صدر هذا المحتل البغيض، ما دام يعتقد أن أهل هذه البلاد التي يستعمرها، غير ساخطين عليه. يقول الإمام: «... وهذا الإعراض عن السياسة لا ينافي مخاطبة الحكومة فيما يروونه ضارا بهم من القوانين والمعاملات، فإذا لم تكشف ظلامتهم بعد الاتجاه إليها في كشفها، كانوا معذورين إذا سخطوا وتربصوا بها الدوائر.»⁸ ويتبين من خلال هذا الطرح، أن الخطة في الإصلاح تعتمد على المطالبة أولا، فإن لم يتحقق معها المراد، ولم تصل إلى الهدف المنشود - بسبب رفض وتعنت المستعمر - فلا ضير إذن، من انتهاج طريق المغالبة بعد استنفاد كل الحلول.

وعلى الرغم من ذلك كله، فإن المراقب الحصيف لهذه الجرائد الإصلاحية، يكتشف دون عناء، الشجاعة الكبيرة التي كان يتحلى بها الكتاب أحيانا، كانوا يرفعون أصواتهم عاليا، جاهرين بالحق، غير مباليين بالعواقب السيئة التي تترتب بهم من كل جانب، فتعرضوا للبلاء، وذاقوا من العذاب ألوانا. إن جمعية العلماء لم تفلت «من الاضطهاد الذي كان الاستعمار الفرنسي يصبه كالجرم على الهيئات الوطنية في الجزائر. وقد كان هذا الاضطهاد يختلف باختلاف الظروف والأحوال، ولكنه كان قائما على رؤوس الوطنيين يقفوههم حي ظعنوا أو أقاموا.»⁹ وهو شيء يؤكد أن الاستعمار لم يكن يسمح بحرية التعبير والجهر بها، بل كان يشهر سيفه أمام الأبرياء العزل، والوطنيين الأحرار، سعيًا منه إلى تكميم الأفواه، وخنق الأصوات الصادرة بالحق، ومعاداة كل ما يمس الثقافة العربية والإسلامية في الجزائر. وقد كان يستمتع «بعقاب المعلمين والشيوخ الذين كانوا ينتصبون لتدريس العربية والشريعة الإسلامية، ولذلك نجد عامة المستنيرين من المفكرين الجزائريين وفي طليعتهم ابن باديس والإبراهيمي، يتخذون من المطالبة بحق تدريس العربية للأطفال الجزائريين قضية سياسية لم يزالوا يناضلون من أجلها أن تتحقق.»¹⁰ وقد بذلوا دونهما المال والنفيس، وقدموا لأجلها التضحيات الضخام، مدركين أن الطريق طويل، والهدف بعيد، ولكن تحقيقه ممكن إذا صدقت النيات، وصلحت الأعمال.

التربية وتثبيت الهوية الوطنية:

أمنت جمعية العلماء أن الإصلاح الذي باشرته، لا يمكن أن ينجح دون الاهتمام بالتربية والتعليم، وجعلته أسلوبا نقيضا لمشروع فرنسا في الجزائر. وقد تأكد لديهم أن العدو المحتل لا يسمح أبدا بتعليم أبناء الجزائر وإخراجهم من الجهل الذي عمل على تعميمه وتوسيع ظله، مادامت الحاجة السياسية والاجتماعية والاقتصادية تقتضي ذلك. فإذا كنا نتفهم خوف فرنسا من تعليم الجزائريين وتنويرهم، وعاقبة ذلك على وجودها وبقائها على

أرض الجزائر، وإذا كنا نعرف دوافع إصرارها على ترويج الخرافات والأباطيل، لمواجهة الإسلام الصحيح الداعي إلى الحرية والانعقاد، فإن الحاجة الاقتصادية أيضا، كانت تفرض على المحتل منع أبناء الجزائر من التعلم كي يظلوا عبيدا - خماسة - لدى الكولون، يَشَقُّون في مزارعه مقابل فرنكات لا تسمن ولا تعني من جوع. وقد كان رجال الحركة الإصلاحية متأكدين تماما بأن التعليم هو المحرك الأساس لدعوتهم، والقلب النابض لمشروعهم، لأن ذلك مرتبط بالإنسان، والتكوين السليم أساس التغيير فيه. لذلك وجه المصلحون نشاطهم شطر التربية والتعليم، مقتنعين أن «تكوين الإنسان وفق الأصول المحددة بفهم الإسلام والعروبة، والتزام القيم الأخلاقية، لا يمكن إيجاده إلا بالتعليم، وإيجاد المؤسسات التي تُيسر الاتصال به لتثقيفه بالاتجاه السليم.»¹¹ لذلك كانت الجمعية تهتم كثيرا وتركز على تأسيس المدارس الحرة، وتعمل على انتشارها في كل ربوع الوطن، وتقاوم المحتل لأجل ذلك.

توجه المصلحون إلى تكوين الناشئة وتربيتها على مناهج تربوية تهتم باللغة العربية والدين الإسلامي، والفضائل الأخلاقية التي أخذت تتلاشى بفعل مخططات فرنسا التي «كانت تدرك خطر تربية الجماهير على أساس إسلامي وعربي، ولذلك وجهت إلى أصحاب هذه الدعوة قهمتها التي كانت تلصقها بالوطنيين في جميع الأقطار وهي أنهم يقومون بعمل سياسي، والعمل السياسي من شأنها وحدها.»¹² وإذا كانت اللغة العربية هي أهم أسس بناء وحدة الأمة، ومظهرها جوهريا من مظاهر هويتها في تاريخها الطويل، فإن تعليمها أضحى على عهد الجمعية أكثر من ضرورة، ذلك أن الاستعمار إذا ما أراد أن يتسلل إلى ضمير الأمة لتخريبه، إنما يعتمد إلى لغة المستعمر كي يزرع فيه سمومه، ويدجنه بثقافته ليصبح أداة طيعة لا تنظر إلى الأشياء والقضايا إلا بعينه التي يرى بها، وأذنه التي يسمع بها، والسياسة التي يسطرها ثم يعكف على تنفيذها. لا جرم كانت «لغة الأمة هي الهدف الأول للمستعمرين، فلن يتحول الشعب أول ما يتحول إلا من لغته، إذ يكون منشأ التحول من أفكاره وعواطفه وآماله، وهو إذا انقطع عن نسب لغته، انقطع من نسب ماضيه، ورجعت قوميته صورة محفوظة في التاريخ، لاصورة محققة في وجوده.»¹³ ولا شك أن سبب معاداة الاستعمار للغة العربية هو ما تحمله هذه اللغة من دين إسلامي لازال يسان بعناية من الله تبارك وتعالى، ويحفظ من التلاشي والزوال. فاللغة هي صورة وجود الأمة، وذاكرتها عبر الزمن، ووعاء أفكارها، ولسانها الناطق بالبيان. وقد كتب عنها الإمام ابن باديس كثيرا في جرائد الجمعية قبل الحرب العالمية الثانية، أما البشير الإبراهيمي فقد خصها لها فضاء رحبا، وفصولا طويلة في جريدة البصائر الثانية بخاصة، بعدما تولى رئاسة جمعية العلماء بعد الحرب الكونية الثانية.

لا مناص أن المحافظة على هوية الأمة وأصالتها، إنما يعبر عن طريق التربية والتعليم، ولا تغيير في الحال على عهد الاحتلال إلا بالعودة إلى المدرسة لتلقي العلم الذي يفتح العقول، وينقل المعارف الإنسانية، ويسعى في حيوية مستمرة إلى إيجاد المناهج الملائمة لتنشئة الأجيال تنشئة اجتماعية تجعلهم أفرادا صالحين لوطنهم، وقادرين على تحمل المسؤوليات الجسيمة، والقيام بأدوارهم المنوطة بهم حاضرا ومستقبلا. لقد توجه المصلحون إلى التربية والتعليم، إيمانا منهم بأهميتهما في ترسيخ المقومات. فلا «توجد الأمة إلا بتثبيت مقوماتها من جنس، ولغة، ودين،

وتقاليد صحيحة، وعادات صالحة، وفضائل جنسية أصيلة، وبتصحيح عقيدتها وإيمانها بالحياة، وبتربيتها على الاعتداد بنفسها، والاعتزاز بقوتها المعنوية، والمغالاة بقيمتها وبميراثها، والإمعان في ذلك حتى يكون لها عقيدة راسخة تناضل عنها، وتستमित في سبيلها. «14» كي تتمكن الأمة من مقاومة مخططات ومؤامرات الاستعمار الدنيئة، والتي تستهدف شخصيتها وهويتها، وتهددها بالزوال والاضمحلال. ومن مواجهة الأخطار المحدقة بها أنى كان مصدرها وشدة قوتها، كي تعزز عناصر الهوية الوطنية. فمتى «صدقت الوطنية في النفس، أقرت كل شيء أجنبي في حقيقته أجنبيا، فكان هذا هو أول مظاهرها الاستقلال وكان أقوى الذرائع إلى المجد الوطني.» «15» والتركيز على التربية كان منها مطبقا ضمن مشروع الإصلاح الكبير، لأن التربية أخلاق قبل كل شيء، ولا ينفع علم إذا لم يتوج ربه بخلاق. لذا كان حرص المصلحين على التربية أشد، ودعوة الشباب إليها هو مما يوجبه الدين الإسلامي، وتقره عادات الأمة، وتنسجم معه فطرة الإنسانية، وتوجهه الضرورات والظروف التي باتت تحيط بالوطن وبأهله. والتربية في نظر الإبراهيمي «مقدمة على التعليم، وهي الأرض، والتعليم شجرها ونباتها، والمتعلم بلا أخلاق وتربية شجرة بلا ثمرة، وجسم بلا روح، ومصباح بلا نور، والإنسان يتعلم لينفع، ويكون مصدر خير وهداية وصلاح، وهل ينفع العالم بدون تربية وأخلاق؟» «16». والتربية إذن هي السبيل للتحرر والثورة، وأداة لمقارعة المحتل، الذي لم يأبه لخطورتها، معتقدا أن علماء الجمعية لا يشكلون عائقا كبيرا عليه، وأنهم مجرد مرابطين من رجال الدين الذين لا يفقهون فن السياسة. وقد أولى المصلحون عنايتهم الكبيرة، وتوجهوا إلى العقيدة الإسلامية وطفقوا يعملون بجد لتنقيتها مما طالها من الشوائب والتحريف والتزييف، وحاربوا الطريقة السلبية التي كانت تعمل على تخدير العقول، وتسعى إلى غرس روح التواكل والرضى بالمستعمر ما دام - حسب زعمها - قضاء وقدر. وهذا مما يسر المستعمر ويسعده لأنه يصرف عنه غضب الشعب، ويطيّل في عمره ووجوده بأرض الجزائر. فمسألة التوحيد ترفض التسليم بالعبودية لغير الله، وهي قضية تدرج في صميم السياسة، لأنها مرتبطة ارتباطا وثيقا بوجود رفض الاستعمار وعدم القبول بوجوده أصلا على أرض الإسلام. لكن فرنسا مع إدراكها لهذه الحقائق، أخذت تعمل بدون هوادة على تحريف هذه المعاني الساطعة، وتنصب على الأمة رجال دين مدجنين، ينشرون سياستها بين المسلمين باسم الإسلام. ويصور أحمد توفيق المدني هذه الحالة الباسئة التي آلت إليها هذه الطرق فيقول: «وآل أمر الكثير من هذه الزوايا والطرق، إلى إحداث وثنية في الإسلام ما أنزل الله بها من سلطان، وأصبح شيخ الطريقة أو المرابط في كثير من النواحي يتصف بأوصاف الربوبية فهو الذي يعطي وهو الذي يمنع، وهو الذي يقبض وهو الذي يبسط، وهو منبع كل خير ومصدر كل شر، وترى بعض السفهاء يقسم لك بالله جهد أيمانه ليقنعك بأمر ما.» «17» وهذا واجب اضطلعت به جمعية العلماء وأخذته مأخذ جد، وراحت تحارب أذنان الاستعمار من طرفيين وأعداء الوطن والدين، حتى أحاطت بهم من مكان، وأبطلت ما كانوا يصنعون.

لم تعد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يوما، في مشروعها الإصلاحي الأصيل، البعد السياسي الثاقب، والرؤية الواضحة في معالجة القضايا الوطنية، والتصور الشامل لمستقبل الجزائر الواعد. يقول ابن باديس مبينا منهجه

في السياسة وموضحا علاقته بوطنه، وموقفه ممن يحب ويبغض هذا الوطن قائلا: «إننا نحب الإنسانية ونعبرها كلا، ونحب وطننا ونعبره جزءا، ونحب من يحب الإنسانية ويخدمها، ونبغض من يبغضها ويظلمها. وبالأحرى نحب من يحب وطننا ويخدمه، ونبغض من يبغضه ويظلمه؛ فلهذا نبذل غاية الجهد في خدمة وطننا الجزائر وتحبيب بنيه فيه، ونخلص لكل من يخلص له، ونناوئ كل من يناوئه من بنيه ومن غير بنيه». 18 وهنا يبين الكاتب نظرتة تجاه المحتل، الذي يغتصب الوطن وأهله، وينتهك حرمتهم، ويعتبرهم أهالي دون مستوى البشر، لذلك - بحسبه - لا يستحقون الحياة الطبيعية التي تنعم بها الإنسانية جمعا.

الخطاب النضالي الجريء:

اتسم الخطاب السياسي لجمعية العلماء في الثلاثينيات من القرن العشرين، بالرصانة واللين لأن همها في بداية نشأتها كان منصبا على إصلاح ما أفسده الاحتلال الفرنسي البغيض الذي عاث في الأرض فسادا، فاغتصب البلاد، واستعبد العباد، ولم يترك لهم شيئا في أمر دينهم وديناهم. وعلى هذا الأساس، فإن التركيز على الجانب الإصلاحي في شقه الديني واللغوي، ومحاربة الآفات الاجتماعية، لأجل إنقاذ الأمة من المآلات السيئة، والشروع في عملية ترسيخ عناصر الهوية الوطنية، كان الهدف الجوهرى المرسوم في أجندة نشاط الجمعية، والضرورة الماسة في مشروعها الإصلاحي العاجل. وقد شهدت الساحة السياسية - وقتئذ - أحداثا أثارت النقاش والجدال طويلا، والتي مست الوطن في كيانه ووجوده، وهما التجنيس، والإدماج. فقد هاجم المصلحون محاولة المحتل الغاصب تجنيس الجزائريين، واعتبروه مؤامرة خطيرة تهدف إلى أن يتخلى الجزائريون عن شخصيتهم وجميع عناصر وهويتهم المتميزة، وثقافتهم الأصيلة وكل مكوناتها من لغة ودين وتاريخ مجيد. كما برروا الدوافع التي جعلت بعض ضعاف الجزائريين يرضخون لمغريات التجنيس، والتي لا يستفيد منه إلا الأقلية، بينما تعاني الأكثرية من الظلم والقهر، والتمييز العنصري. وعلى الرغم من تلك المغريات السخيفة، فإن أبناء الوطن لم يقبلوا التجنيس الذي يقود حياتهم إلى الفناء، وينتهي بأمتهم إلى الزوال.

وشهدت جمعية العلماء صراعا عنيفا ضد محاولات الاندماج، الذي طرحه المحتل الغاصب، وأكدت أن الأمة لا يمكنها التخلي عن تاريخها الحافل بالأعمال الجليلة، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تتنازل عن وحدتها اللغوية والدينية، ولا تستطيع أن تُصعر خدوها لثقافتها وأخلاقها وعوائدها. هذا هو الهدف الحقيقي، والتصور الناضج الذي عبر عنه ابن باديس وبينه في قوله: «ثم إن هذه الأمة الإسلامية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا. ولا نريد أن تكون فرنسا. ولا تستطيع أن تكون فرنسا ولو أرادت. بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها، وفي دينها، لا تريد أن تندمج. ولها وطن محدود ومعين هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة». 19 وفي النص فصل الخطاب، فقد كشف الكاتب عن موقفه السياسي الصريح إزاء الوطن الذي ظل ولا يزال عصيا على الغزاة، لا يقبل بغير أهله الشرفاء.

لم يبلغ الصراع السياسي بين جمعية العلماء والمحتل الغاصب، ما بلغه إبان حوادث الثامن مايو عام ألف وتسعمائة وأربعين، فقد كانت أحداثا مريعة، اهتز لها الرأي الوطني والعالمي معا. فقد خرج الشعب الجزائري في هذا اليوم البائس، في مظاهرات واسعة، شملت على الخصوص قلمة، وخراطة، وسطيف، وأراد أن يعبر كغيره من شعوب العالم، عن فرحته بانتصار الحلفاء على الألمان، وعن تطلعه الكبير إلى حرية والاستقلال. غير أن فرنسا تأذنت بالشر، وقابلت الاحتفال بالمذبحة المروعة، والتي ذهب ضحيتها عشرات الآلاف من أبناء الجزائر الأبرياء، ظلما وعدوانا. وقد تركت تلك المجازر الوحشية في نفوس الجزائريين أثارا مدمرة، وجراحا عميقة لا تندمل. ووجدنا في كتابات جمعية العلماء مادة دسمة تخلد هذا اليوم، واخترنا منها هذه الفقرة للبشير الإبراهيمي يقول فيها: «يا يوم! ... لله دماء بريئة أُرِيقت فيك، ولله أعراض طاهرة انشُهِكت فيك، ولله أموال محترمة اسْتُبِيحت فيك، ولله يتامى فقدوا العائل الكافي فيك، ولله أيامى فقدن بعولتهن فيك، ثم كان من لئيم المكر بهنّ أن مُنِعن من الإرث والتزوج، ولله صباية أموال أبقتها يد العائثين، وحُبست فلم تُقسم على الوارثين.»²⁰ إن الشعب الجزائري لم يشهد لهذه المجازر مثيلا في تاريخه الطويل، ونالت منه الصدمة النفسية، أمام عالم متواطئ مع الظالمين، والمستبدين. غير أن هذه المأساة شكلت تحولا خطيرا في الصراع السياسي مع المحتل، واقتنع الشعب الجزائري أخيرا أن المستعمر لا يرحل إلا بالثورة المسلحة.

بهذا المنهج الإصلاحى الناضج، والرؤية السياسية الواضحة، والتي تعكس فلسفة جمعية العلماء في صراعها مع الاستعمار البغيض، استطاعت أن تعيد للشعب الجزائري أصالته وهويته، وأن تعيد إليه الأمل في الحياة، وتعد الآلاف من الشباب الجزائري المثقف، والمؤهل على تحمل مسؤولية قيادة الأمة إلى الثورة المباركة، وتحقيق استقلالها الواعد في ظل وحدتها الوطنية.

- 1- رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط.2، الجزائر 1981، ص94.
- 2- شاوش حباشي، من مظاهر الروح الصليبية للاستعمار الفرنسي بالجزائر، 1830-1962، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت، ص6.
- 3- عبد الحميد مزيان، مجلة الثقافة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، العدد: 87، الجزائر: ماي 1985، ص 7.
- 4- رابح تركي، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التاريخية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، د.ط، الجزائر 2004م، ص 73 و 72.
- 5- ينظر: محمد خير الدين، مذكرات، المؤسسة الوطنية للكتاب، د.ط، الجزائر، د.ت، ص 123.
- 6- الطيب العقبي، نخضة الجزائر اليوم ودعوتنا الإصلاحية، جريدة السنة، العدد الثاني، الجزائر أبريل 1933، ص7.
- 7- عبد الحميد بن باديس، خطتنا ومبادئنا وغاياتنا وشعارنا، جريدة المنتقد، العدد الأول، جويلية 1925، ص1.
- 8- محمد عبده، نصيحة الأستاذ الإمام لأهل الجزائر وتونس، جريدة المنتقد، م.س، م.11، ج.6 ص365.
- 9- عبد الملك مرتاض، فنون النشر الأدبي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، د.ط، الجزائر 1983، ص17.
- 10- عبد الملك مرتاض، أدب المقاومة الوطنية، في الجزائر، 1930-1962، رصد لصور المقاومة في النشر الفني، دار هومة، د.ط، الجزائر 2009، ص169.
- 11- أسعد السحمراني، الاستبداد والاستعمار وطرق مواجهتهما عند الكواكي والإبراهيمي، دار النفائس ، ط.1، بيروت 1984، ص 11 و 12.
- 12- شكري فيصل، قضايا الفكر في آثار الإبراهيمي، مجلة الثقافة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، العدد 87، الجزائر ماي 1985، ص 176.
- 13- مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت، ص33.
- 14- البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، دار الغرب الإسلامي، ط.1، بيروت 1997، ج.3، ص 44.
- 15- مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، م.س، ص37.
- 16- محمد الصالح الصديق، يفنى الرجال وتبقى الأعمال، مجلة الثقافة، م.س، ص369.
- 17- أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، د.ط، الجزائر 1984، ص376.
- 18- عبد الحميد بن باديس، خطتنا ومبادئنا وغاياتنا وشعارنا، جريدة المنتقد، م.س، ع.ن، السنة نفسها، الصفحة نفسها.
- 19- ابن باديس، كلمة صريحة، جريدة الشهاب، ج.1، م.12، أبريل 1936، ص44.
- 20- البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، م.س، ص 335.

